على هامش « أحلام شهرزاد »

٢ ـ قضية اليـــوم

للأستاذ دريني خشبة

قالت فاتنة : « أكتب يا صاحبي ... أكتب ... أكتب ولا تظنن أن الذي تكتب سيغضب صاحب شهرزاد أو المعجبين بصاحب شهرزاد وما أظنك إلا كنت واحداً منهم ، إن لم تكن ما تزال واحداً منهم . . . ثق يا صاحبي أن مبدع شهرزاد لا يحرجه نقد ما أبدع لأنه أخذ على نفسه عهداً بأن يُنَفِّذ فيها أحكام الزمان ، قاضيه في « القصر المسحور » . وهل نسي القراء بعدُ ذلك الحكم الذي أصدره الزمان — القاضي العادل — على مبدع شهرزاد ، في الفصل الأخير من القصر المسحور ؟ إن كانوا قد نسوا هذا الحكم فاكتبه هنا لهم عساه أن ينفعهم فيما نحن بسبيله اليوم من أمر تلك القضية التي أحدث ضجتها الحرّاصون وأرجف بها المرجفون ...

حكم الزمان : « والآن وقد سمعنا ادعاء المدعين ودفاع المتهم الأول ، ولاحظنا اعتزال من اعتزل وعدول من عدل عن الاتهام ، نقرر أن من حق الأديب أن ينشئ أشخاصه كما يريد هو لا كما يريدون هم ، بل إن من الحق على الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يؤديهم إليه فنه ، لا بغير من صورهم التي تلقاهم عليها ولا يبدل ، ولو حاول ذلك لما استطاعه ولما وجد إليه سبيلاً . ولمن شاء أن ينكر عليه أو على فنه هذه الصورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه ، وما ينبغي لهذه الأشخاص نفسها أن تثور بمنشئها أو تمكر به أو تكيد له أو تتألب عليه ، أو تبغي له سوءاً أو تستنزل عليه عقاباً ؛ فإن فعلت فهي طاغية يجب أن ترد عن طغيانها ، وباغية يجب أن تصد عن بغيها ، وجامحة يجب أن يكبح جماحها ، ومنشئها وحده هو القادر على ذلك . وسبيله إليه ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً . ولما كان المتهم نفسه قد أعلن تواضعه واعترف بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي ، وإلى أن يجد ويمعن في الجد ، لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه . ولما كنا نقدر للمتهم تواضعه وطموحه إلى الكمال ، واعترافه ببعد الأمد أمامه ؛ ولما كنا نحرص على أن تمنحه المعونة على ما يريد من الرق الفني فقد قضينا أولاً بإسقاط دعوى المدعين ، وتبرئة المتهم مما وجه إليه . ثانياً ... بنفيه عن سالتش الخ ... »

وحسب القراء يا صاحبي هذا القدر من حكم الزمان الذي ارتضاه صاحب « شهرزاد » ورضي أن ينشر في قصة (القصر المسحور) التي اشترك في إبداعها مع صاحب « أحلام شهرزاد » وليس القراء في حاجة إلى أن نذكرهم بأن هذا الحكم الذي أصدره الزمان القاضي العادل ، هو حكم أملاه على الزمان صاحب « أحلام شهرزاد » وكان حريصاً فيه على أن يرسم لشريكه السبيل إلى (ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً) ، وكان جميلاً من صاحب « أحلام شهرزاد » أن يسجل على شريكه : (تواضعه واعترافه بقصوره وتسليمه بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي ، وإلى أن يجد ويمعن في الجد ... لا ليبلغ الكمال ... بل ... ليدنو منه) وأن يقدر له تواضعه وطموحه إلى الكمال ، واعترافه ببعد الأمد أمامه) . وحرصه على أن يمنحه (المعونة على ما يريد من الرق الفني)

فهل نخشى بعد ذلك يا صاحبي أن يغضب صاحب شهرزاد إذا كتبت في قضية « أحلام شهرزاد » كلمة ترد بها الحق إلى نصابه ؟ وماذا يغضب صاحب شهرزاد كما يحرص الحراصون ويرجف بالباطل المرجفون ، وقد اشترك في نشر هذا الحكم الذي ذاع من أبراج القصر المسحور ولم يشترك في نشره إلا بعد أن قبله ورضي ما جاء به ، ولم يعقب عليه بكلمة ؟ الحق أن صاحب شهرزاد أعظم من أن توغر صدره الكريم نفثات المبطلين المصدورين ... بل واجبه أن يصفع بالحقائق التي وردت في ذلك الحكم أفئيتهم ؛ لأنه عرفها قبل أن يعرفها أحد قبله ، وأذعن لها قبل أن تذيع في الناس

وبعد فقد كان هذا الحكم تعقيباً على قصته ـ أو مسرحيته الروماتيكية ـ شهرزاد ، فهل كان فن هذه المسرحية ناقصاً ؟ وهل كان في حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير جميعاً ؟ وهل نحن الذين يطلب إليهم أن يجيبوا على ذلك ؟ وكيف وقد اعترف صاحب شهرزاد بقصوره وسلم بأنه في حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعي ، وإلى أن يجد ويمعن في الجد ... لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه ... إلى آخر ما جاء في عقابيل هذا الحكم من ألفاظ التواضع وبعد الأمد وحاجته إلى

معونة ثابتة من الخارج على ما يريد من الرقى الفنى ... الخ .

هل نجيب أو لا نجيب ؟ وهل يقف ما اعترف به صاحب شهرزاد بيننا وبين ما نريد أن نقول ؟ وهل من حقنا أن نقول شيئاً بعد هذا ؟ وهل نستطيع أن نخالف عن أمر الزمان، وأن نثور بأحكامه ؟

أجل ، نحن نستطيع أن نفعل ذلك ، فقد جاء فى هذا الحكم الإذنُ (لمن شاء أن ينكر عليه (على الأديب) أو على فنه هذه السورة كلها أو بعضها ، وأن يعيب عليه أو على فنه ما يكون فيها من ضعف أو نقص أو تشويه) ... وعلى هذا فلنا أن نتناول نقد شهرزاد بما نشاء من كل ضروب النقد ، ضامنين ألا يغضب مبدعها كما يحاول المرجفون المبطلون أن يحملوه على الغضب ، بما يوهمونه من السطو على بضاعته ، وادعاء ما هو حق خالص له

ولكن ... هل كان فن « شهرزاد » ناقصاً ؟ وهل كان فى حاجة إلى التجديد واصطناع الأناة والدقة والإتقان فى التصوير والتعبير جميعاً ؟ وكيف اعترف صاحب شهرزاد بذلك ، واعترف معه بقصوره وبأنه فى حاجة إلى أن يسعى ويطيل السعى ، وإلى أن يجد ويطيل الجد ... لا ليبلغ الكمال ... بل ... ليدنو منه ؟! أما نحن فنخالف صاحبى « القصر المسحور » فى كثير من ذلك ، ونوافقهما فى بعضه ... إذ نشهد أن « شهرزاد » قطعة فنية رائعة من حيث الفن الأدبى الخالص لوجه الفن ، لا لوجه الحياة ... ومن حيث أنها تصور مذهباً فى الأدب يأخذ به كاتبها نفسه ، ويتحمس له ، ولا يرى أن يحيد عنه ... أليس قد اشترك مع عميد الأدب العربى فى « القصر المسحور » فأبى إلا أن تكون له شخصيته المستقلة البارزة إلى جانب شخصية العميد التى تختلف بأسلوبها وتتفرد بسردها وتتخذ إلى قلوب القراء طرائقها المألوفة المعروفة ... وعندنا أن شهرزاد من حيث الفن ليست فى حاجة إلى ترقية ولا إلى تجديد .. فقد بلغت من ذلك الكمال . وهذا حق لا ريب فيه . أما الذى نثور من أجله على « شهرزاد » وعلى مذهب صاحبها كله فى الأدب ، فهو هذا التحقير الشنيع للمرأة ، واعتبارها متاعاً رخيصاً لا يصح أن يناط به الشرف ، أو اعتقاد الحفاظ فيه ، أو نسبة العفاف إليه . ثم هذه الحماسة التى يبديها صاحب هذا المذهب فى التمسك برأيه والفخر من أجله بأنه « عدو المرأة »

ومن القول المعاد أن نلخص للقراء فكرة العبقرى الأول الذى ابتدع فكرة قصص « ألف ليلة وليلة » والذى ابتدع من أجلها شخصية شهرزاد الرائعة ، تلك الفتاة النابغة التى استطاعت أن تطفئ جذوة الحقد على النساء فى نفس شهريار ، وأن تنسيه مأساة زوجته التى أزهق بسبب خيانتها أرواح هذه الجمهرة من فتيات مملكته ، والتى استطاعت مع ذلك أن تكسب حب هذا الملك المنقبض النفس ، المكظوم الفؤاد ، وأن تبادله ذلك الحب ، وأن تجزيه عليه ألوفاء والصفاء والإخلاص، كما استطاعت أن ترد عليه ثقته بالمرأة التى كرهها ، ومحبته لها بعد البرم بها ، وافتتانه بحديثها بعد انصرافه عن كل كلمة تنبس بها ، فيكون له منها أبناء برزة ، وأسرة مجموعة الشمل ، فتتغير حاله خضوعاً لقانون الظروف ، ونزولاً على مقتضيات الأحوال الجديدة ...

هذه هى شهرزاد البسيطة غير المعقدة . هذه هى المرأة التى تعتبر ، ويجب أن تعتبر ، محور الحياة ومناط الفضيلة ، ورحمة الله التى تذهب الأحزان ، وابتسامة السماء التى تشرق فى القلوب المكروبة فتغمرها بالسعادة وتفعمها بالرضى ... المرأة التى تروض الطباع الجافية فتجعلها رخاء ، وتحتال للغرائز الوحشية فتحيلها إلى اللين واليسر والصفاء

أما شهرزاد الأخرى ... تلك الهولة التى رمز بها صاحبها إلى المرأة فى كل زمان ومكان ... فهى لا تمثل إلا نفسها ... إنها تمثل حلماً مريضاً يملأ خيالاً مريضاً ... لقد تصورها صاحبها امرأة احتالت على الملك — على شهريار — بقصصها البارع لتنقذ نفسها قبل أن تنقذ جنسها (ص ٤٠) كما صرحت بذلك للوزير وهى تحاوره وتداوره — هذه هى شهرزاد الأنانية الأثرة التى لا يصح أن تمثل إلا نفسها — أما شهرزاد التى تتشهى العبيد السود فى المنظر الخامس ، ولا تريد أن تشبع منهم ، وتخون الملك من أجلهم ، فمَن مِن بنات حواء تمثل ؟ مَن مِن جمهور بنات الإنسانية وأخواتها وأمهاتها تمثل هذه المرأة الساقطة الهلوك ؟ ! هل تمثل إلا نفسها تلك المرأة التى تنازل الوزير فى المنظر الثانى ، ويستطيع حبها الدنس أن يعصف بنفسه — وهو الوزير المخلص — فى المنظر السادس ، وتكون نتيجة هذا الحب أن يقتل الوزير نفسه فى المنظر الأخير حينما يكتشف أن شهرزاد لم تكن تتشهاه وحده ، بل كانت تعبد (جسم) العبد أكثر مما كانت تعبد جسمه (ص ١٣٨) ما هذا ؟ ما تلك الصورة الشاحبة التى يخبئها صاحب شهرزاد للمرأة فى مخيلته ؟ لقد مسخ الصورة الساذجة غير المعقدة ، الصورة العلوية الفردوسية التى ابتدعها الرجل العبقرى الأول الذى ابتكر فكرة ألف ليلة وليلة فجعلها صورة شائهة قبيحة فاجرة لا يمكن أن تمثل

مرأة المواخير التي تتجر بعرضها كما تتجر بأعراض الناس . يريد أن يقول المبتدع الأخير للعبقرى الأول : إنك يا صاحبي رجل سليم النية طيب القلب ساذج التفكير ، تنظر للمرأة تلك النظرة العالية المبرأة فتتهمها بالذكاء الصالح ، وتنفي عنها الدهاء الطالح ، حين تضع بين يديها شخصية مستوحشة مثل شخصية شهريار الذى قتل زوجه الملكة وقتل العبد الذى خانته فيه ، ثم راح يقتل العذارى نقمة منه على جنس المرأة حتى رزقه الله هذه الفتاة الألمعية « شهرزاد » التي تسلمته كما يتسلم الروضون السباع والضوارى فما يزالون بها حتى يسلس لهم قيادها وينقاد لهم عاصيها ، وتخضع كما تخضع الثمابين فى الهند للموسيقا وتسكن سكون الطفل إذ يلتقم ثدى أمه ... أما أنا — لاجعلت فداك — فعلى النقيض منك ، إذ أنى قليل الإيمان — بل لا إيمان لى على الإطلاق — بالمرأة ... المرأة التى تمثلها شهرزاد فى كل زمان ومكان ... إنى عدوها !! ... إنها مخلوق أنانى سلف غادر ... إنها كائن غوىّ بغىّ فاجر ... إنها أصل كل بلاء ، وجالبة كل شقاء ... إنها كما جاء فى هذا البيت المضحك الذى دسه عليك بعض القصاص المتأخرين فيما دسوه عليك من سخف ... هذا البيت الواهي المتهالك الذى لا يستقيم له وزن :[1]

إذا رأيت أموراً منهـا الفؤاد تفتت

فانظر تجدها من النساء تأتت !!

بالضبط يا عزيزى العبقرى الأول ، ولو أنك أنت كنت رويت هـذا البيت ، وثقفته لراقك أن يكون مذهبك فى المرأة كما أصبح مذهبي ، ولدنت به كما أدين أنا — فى آخر الزمان — به فقد تناولت شهرزاد الحصيفة العفيفة الظريفة اللطيفة التي قتلت الشيطان بين جنبي شهريار ، وأبادت الظلام الذى جثم على قلبه ، وأعادت إلى روحه السلام والطمأنينة ، وغيرت مجرى تفكيره فى الحياة حين أنجبت له أبناء وخلقت له « بيتاً » ، شهرزاد التى لم تزل بالملك المتبرم بكل شيء ، الناقم على كل الوجود ، حتى على نفسه فردته إلى الرضى ، وغسلت قلبه بالثلج والبرد ، واشتركت وإياه فى شئون الملك ، فاستقامت له الرعية ، وازدهرت فى فيض عدالته الدولة ... تناولت أنا شهرزادك هـذه فسختها ... ولا تؤاخذنى يا عزيزى العبقرى الأول فهذا رأيي فى المرأة ... وجعلتها أنانية أثرة لا تجهد إلا أن تبقى على نفسها وإن هلك نساء العالم . ثم جعلتها تخدع الملك وتصر على الانتقام منه فتخونه كأسفل ما خانته زوجته الملكة الأولى ، وتؤوى إلى فراشه العبيد الأقوياء السود فلا تشبع منهم ، وتحرص على أن يكونوا سوداً غلاظاً (فالزهرة البيضاء الرقيقة تنبت من الطين الأسود الغليظ) ، وتحرص أن يكون عبدها (وضيع الأصل قبيح الصورة ، لأن هذه هى صفاته الخالدة التى تحبها) ... فإذا أنبأها العبد أن (تلك هى صفات الشهوة !) قالت له : « اقترب » فإذا قال العبد : « يخيل إلى أنك امرأة لا ككل النساء . أنت لا يمكن أن تعشق أحداً » قالت له « لا شأن لك بقلبي ! » فإذا قال : « أنت إنما تلعبين بي . إنى أخافك » قالت : « أنت واهم » فيقول ، ويا مصيبة ما يقول : « وزوجك ! » فتقول : « ما شأنك به ؟ » فهل رأيت إلى يا عزيزى العبقرى الأول كيف أشعت الفجور فى نفس شهرزادك ؟ وإن غضبت . فشهرزادى ! وماذا يغضبك وللأديب أن يضع أشخاصه فى الصورة التى يحب كما جاء فى حكم الزمان فى آخر قصة القصر المسحور ؟ لقد أشعت الفجور فى نفس شهرزاد وفى نفس العبد وفى نفس قمر وفى نفس الجلاد وفى نفس أبي مينور ، وفى نفس الملك . إى والله فى نفس شهريار الذى ما فتىء يقتل النساء . لقد جردته حتى من نخوة الرجولة وخولتها وجعلتها ضعفاً وخنثاً وفسولة . لأنه يرى العبد يخرج من مخبئه فى مخدعها ، فلا يبرم ولا يثور ولا يأمر جلاده بشيء ... ولا بالبصق فى وجهه . ولماذا يفعل وقد اشتد إيمانه بأن هذه هي طبيعة المرأة التى لا سبيل إلى تقويم معوجها ؟

أرأيت إلىّ يا عزيزى العبقرى الأول ؟ ! هـذا مذهبي فى المرأة ... روّأت له هذا التروىء ، وموّهت به على قرائى ذاك التمويه ، وأذعته عليهم فى كتاب وجد من حرية الرأى ورحابة الصدر ، وحسن الالتفات ، فى مصر والشرق ، ما وجد ، فشاع وذاع وملأ النفوس والأسماع ... وغلب القنّب — الذى ورد ذكره فى كتابي — على صفاته الغوالى ، ومزاياه الكبار

قالت فاتنة : « وحسبك هذا القدر اليوم يا صاحبي ، وقبل أن آذن لك فتضع هنا اسمك ، نبه الناس إلى أن صاحب أحلام شهرزاد لم يسرق من هذا الفجور شيئاً ، بل هو قد عالجه العلاج الذى كان ينبغي له منذ أعوام . وإلى اللقاء فى الأسبوع المقبل » — دينى خشبة

(١) هما بيتان لا بيت واحد نظمهما هكذا :

إذا رأيت أموراً منهـا الفؤاد تفتت

فانظر إليهـا تجدها من النساء تأتت

(الرسالة)